أعلام الأدب

يوريبيدز

لغته . فنه . وطنياته

للأستاذ دريني خشبة

أعظم الآثار الفنية في عالم الآداب هي تلك التي لم يستطع أحد إلى اليوم نقلها من لغة إلى لغة ... فالقرآن مثلاً لا تعرف قيمته الفنية إلا في اللسان الذي نزل به، وقد فشل الكثيرون في ترجمته ترجمة فنية سائغة تحتفظ ولو بالقليل جداً مما اختص به أسلوبه القوي البارع المسبوك المتين من بلاغة واتزان وموسيقى وشدة أسر ... وكذلك الإلياذة والأودية والأنييد وفردوس ملتون... إنه لا توجد لهذه الآيات الأدبية الفنية البارعة ترجمات تعادلها فيما امتازت به من خصائص لُغاها التي أُلفت بها ، فما تستطيع الترجمة إلا أن تشوه جمال الأصل وتمسخه مسخاً ... ومثل هذا يقال في درامات يوريبيدز ، فإنه لم يستطع أحد ممن نقلوها إلى لغاتهم أن يحافظ على روح الشاعر العظيم وقوة بيانه . وهذا شلي أحد عباقرة الشعراء الإنجليز وأحد المعجبين بيوريبيدز والمتمكنين في اللغة اليونانية القديمة ... لقد أحصى له النقاد أخطاء كثيرة في ترجمته درامة السيكلوبس . . ثم عدّوا له ضروباً من الشطط

لأننا تنفق الأوقات فيما يضرنا ولا ينفعنا ، فحياتنا قصيرة ... وبلادنا ترنو إلينا

على أن هذا النظام الذي اتبعه « غوته » في عمله وخضع له ، هو نظام الإحساس الرهيف . ونحن لا نستطيع أن ندع أحاسيسنا تسيطر على أنفسنا ، فتعجزها عن العمل . أنظروا إلى العامل البائس الذي غدا إلى عمله ، وترك ابنه في داره ، يعالج الحمى ... فالفكر التي تملأ رأسه تنشئ على سمعه وبصره ، فيخلد إلى الأحلام ... وتحف به الطيوف السود والأشباح المرعبة . وربما أمسك بالقلم ليخط رسالة ... ولكنه يبقى صامتاً حيران ... أمام ورقته البيضاء ... تفر منه الكلمات ... ويلتاث عليه الكلام

(دمشق) صموع الربيع والنمر

ابتعد بها عن الشاعر العظيم ... ولقد كان شلي معذوراً من غير شك . فلقد بلغ يوريبيدز الذروة بالبيان الأتيكي واللغة الأتيكية . وقد كان مثل أبي الطيب في الشعر العربي ، ارتفع ثم ارتفع ، فلما مات لم يخلق الله له نداً يحلم بمرتبته في الشعر والحكمة . هذا ولقد أوتي يوريبيدز أضعاف ما أوتيه أبو الطيب من قوة الأسلوب وعمق التفكير ، لا في بيت ، أو مقطوعة ، أو قصيدة ، أو مرثية أو مدحة ؛ وإنما في درامة طويلة فيها حوار وفيها خطاب وفيها غناء وفيها بكاء وفيها تدبير وفيها تصوير لحادثة متشعبة ، هي كالكائن الحي ، يملأ المسرح ، ويملأ الآذان ، ويملأ الأبصار ، ويملأ القلوب

انتهت الدرامة بعد يوريبيدز في تاريخ الأدب اليوناني . . هكذا يقول المؤرخون ... وهم يقصدون الدرامة العالية ذات الفن الرفيع ... وقد عاش يوريبيدز يؤلف للمسرح قرابة خمسين سنة ، ومع ذلك فقد عاش غريباً في قومه ، بغيضاً إلى غالبيتهم الغيظة المحنقة لشدة ما ثار بتقاليدها وسخر من أوهامها ... فلما مات ... أخذ يعيش بأدبه العالي من جديد ، وأخذ يخلب القلوب ويسحر الألباب بدراماته التي نيفت على التسعين ، والتي ظلت تمثل بعد موته ستمائة سنة أو يزيد ، والتي ظلت شغل النحويين واللغويين من علماء الأمم المختلفة في اليونان وفي رومة وفي بزنطة إلى ما قبل ألف سنة من الزمان . . . فما نجد لغوياً من مؤلفي العاجم إلا وهو يستشهد به في أكثر ما يستشهد على صحة كلمة أو سلامة تعبير على نحو ما يستشهد مؤلفو القواميس عندنا بأشعار الجاهلية والقرآن الكريم

ومع هذه المرتبة الرفيعة في اللغة فلم يستحدث يوريبيدز شيئاً ذا بال من وجهة الفن المسرحي ، بل هو قد أخذ ما استحدثه سوفوكليس دون أن يغير منه شيئاً . ويبدو أن اشتغاله بالفكرة العميقة واستعراض الآراء السيكلوجية التي استحدثها في أكثر دراماته ، والتي لم يعرفها تاريخ المسرح قبله ، ثم استعراض الآراء الفلسفية التي طبعها فيه أساتذته ، وأصدقاؤه السفسطائيون ، ثم عنايته الشديدة بالصوغ الشعري ، وتجويد أغاني الجوقة ، كل ذلك حال بينه وبين التجديد المسرحي الفني ، أو ما يعنون به (تكتيك) المسرح من وجهة الشكل لا من وجهة الموضوع .

على أن ليوريبيدز مع ذلك خصائص ميزته من أقرانه ،

ومن أهمها تلك المقدمات الطويلة الاستهلالية التي يهيء بها الأذهان لمشكلته الدرامية والتي يقصها لسان شبح كما في (هكيوبا) أو لسان إله كما في (هيوليتس) أو لسان أحد أشخاص الدراما كما في (هيلينا) ... الخ ...

وليس يعترض على ذلك بأنه لم يتبع تلك السبيل في (إفجنيا أوليس) لأنه لم يكن هذه الدراما كما أسلفنا بل أكلها غيره، وربما بدلها غيره أيضاً.

ومن ذلك أنه كان يحل عقدته الدرامية في اللحظة الأخيرة بظهور شبح أو إله أو سرد نبوءة، فيظهر ما كان مطوياً عن الأفهام، وهو ما يسميه نقاد الآداب الكلاسيكية Deus-ex-Machinâ أو (إله من الآلة) أو تسخير إله لغرض درامي كما تُسخّر الآلة. وكان أرسطو يكره ذلك في درامات يوريبيدز؛ وإن كان سقراط من قبله لا يرى في ذلك ما يعاب به الشاعر — والحقيقة التي اتفق عليها نقاده، وفي مقدمتهم الدكتور ڤيرّال[1] (Dr. Verrall) إن هذا هو أشنع عيوب يوريبيدز بالإضافة إلى طول جواره الذي يحيله إلى الخطب الرنانة أقرب منه إلى الحوار المسرحي، فقد يطول ما يلقيه الممثل الواحد في المقالة الواحدة عن صفحتين أو ثلاث، وهذا ما كان يسخط أرسطو، وما يزال يسخط مترجمي يوريبيدز.

هذا، وينبغي ألا ننسى له براعة تنقله بالنظارة من المشهد إلى الآخر وما يثيره فيهم من الشغف والشوق والتشوف لما بعد ... ثم ينبغي كذلك أن نذكر أن أجمل الأغاني — ولا سيما أغاني الحب — هي ما نظم يوريبيدز

أما ما يعيبه بعض النقاد على الكورس في دراماته وعدم قيامه بما جعل الكورس له في سائر الدرامات اليونانية من وصل للحوادث وتمهيد لما يجيء بعد ثم شرح لبعض الوقائع الطويلة التي لا يتيسر تشخيصها على المسرح، فهو قول مردود لأن الذي صنعه يوريبيدز وحصر به مهمة الكورس للموسيقى والغناء هو سمو منه بوظيفة الكورس، واختفاء ظلال خلابة من لذة الألم في المشاهد المشجية وجمال الاتعاظ في مشاهد العبر، وتذوق الجمال في المشاهد المنتزعة من صميم الطبيعة .. وعلى هذا فقد قصر يوريبيدز كورسه على إلهاب الشعور وإذكاء الحس بالموسيقى التي تتفز وكل مشهد من المشاهد، والغناء الذي لا يجيء (نشازاً!) كما نشهد في بعض دراماتنا العصرية

(١) في كتابه النقد Euripides The Rationalist

وطنيات يوريبيدز

لم يتأثر شاعر يوناني بروح بركليس كما تأثر به يوريبيدز، ولم يبد هذا الروح واضحاً جلياً في أدب شاعر كما بدا واضحاً جلياً في كثير من دراماته .. لقد سمعه يخطب قبيل حرب البلوپونيز الأولى وهو يشيد بمناقب أثينا وما حلته من قسط عظيم في تاريخ اليونان حينما حررت شعوبها من ربقة الفرس وتعرضت وحدها للدمار والحريق حتى إذا ظفرت بعدوها وظهرت منه البر والبحر عادت تنشئ لجميع الشعوب الهيلانية حضارة رفيعة قوامها الديمقراطية والفن والأدب والفلسفة ... ثم قال بركليس كلمته الخالدة التي أوردها في تلك الخطبة: «لم لا تحدق الشعوب والقبائل اليونانية كعصبة من الشاق العامية حول أثينا؟» ثم ذكر ما لأثينا من الفضل في التعريف بالفضيلة ونقلها من حيز النظريات إلى عالم الدولة ومعائش الشعب وسياسته العليا، وقد خاض يوريبيدز معظم حروب البلوپونيز (بين أثينا وأسبرطة) وكان حب الوطن يسمر فؤاده بالإيمان، وكان يحزن أشد الحزن لهذه المجازر التي تنشب لأسباب تافهة بين شعبين شقيقين وإن تكن الحرب في الحقيقة بين ديمقراطية أثينا وأوتوقراطية أسبارطة ... وقد كان يوريبيدز من أنصار السلام آخر الأمر وإن يكن قد ظل جندياً من سن الثامنة عشرة حين اعتبر رسمياً (إفيبوس) أي شاباً لائقاً للجندية إلى أن بلغ الستين ... وقد أثار عليه ميله للسلام حفائظ مواطنيه، تلك الحفائظ التي منها ما عرفنا من ثورته على تقاليد السلف وما كان يتناول به النساء في دراماته من تحليل، ودفاعه السيكلوجي عن الزناة والقتلة وجنايات المأفوكين، وما سنعرفه عنه في هذا الفصل من سخريته بالآلهة وتجديفه في دين الإغريق وري أرباب الأولمب بأقسى التهم وأفتك سهام التجريح ... لكن يوريبيدز مع ذلك كان يحب أثينا لأنه كان لا ينسى إذ هو طفل والأثينيون ينقلون إلى سلاميس العجائز من الرجال والنساء والأطفال — وهو منهم إذ ذاك — والفرس البرابرة يحرقون القرى والمعابد على الشاطئ فتندلع ألسنة النيران لتكتب في صفحة

التاريخ وقائع هذه الحرب بحروف من نار ... لم يكن يوريبيدز ينسى هذا المنظر الفظيع ، ولم يكن يبرح ذهنه بعد إذ شب أن أثينا الضعيفة الديمقراطية قد انتصرت على فارس القوية المستبدة، وأن الأثينيين القليلين الجياع قد انتصروا ذلك النصر لأنهم كانوا غير معتدين على أحد ولا طامعين فى ملك أحد ... ولأنهم « أحرار أيها الملك ، ولكنهم غير أحرار فى عمل أى شىء ، لأن لهم سيداً واحداً يخضع له الجميع يدعونه القانون ! » كما قال أحد الأسبرطيين لماهل الفرس أجزرسيس[1] وهو يسأله لماذا لا تفر هذه الحفنة القليلة من الناس أمام عسكره اللجب الكثير !

هكذا أحب يوريبيدز وطنه أثينا الذى أشاد به فى كثير من دراماته . وهكذا أحب يوريبيدز الديمقراطية ، لكنه سخط على الديمقراطية جميعاً حينما ثار وطنه عليه مع أنه من أعظم أسباب رفعته ، وحينما رأى الديمقراطية ترفع الأوشاب وتمكّن منهم زعماء الشعب فيتحكمون فى السادة الأخيار من رجال الذهن والنظامة الصالحة من نجباء الأمة ثم يظل هؤلاء الأوشاب يحترفون سياسة ، وموضع تقديس الرعاع والدهماء ؛ والويل كل الويل لمن يجرؤ أن يتقدم بكلمة ولو كانت كلمة الحق ، أو أن يرسل فيهم لساناً ولو كان لسان الصدق ...

من وطنياته فى ميديا

حينما لقى جاسون زوجته ميديا بعد إذ كشفت سره دار بينهما حديث طويل فيه مرارة وفيه ثورة وفيه جائحة من السباب والشتائم والتعيير صبتها ميديا على رأس جاسون الذى خدعها وغدر بها ولم يذكر ما صنعت فى سبيله ولم يجزها جيلاً بجميل :

جاسون[2] : ... كيف تزعمين يا امرأة أننى لم أجزك على ما قدمت إلىّ من جميل ؟ لقد أخذت أضعاف أضعاف ما أعطيت ! لقد نقلتك من أرض البربرية الخبيثة الحنثة إلى فراديس اليونان الفياحة ، حيث عرفت لأول مرة جمال العدالة ، وبهرك سلطان القانون فأقلعت إلى حين عن وسائلك الوحشية ... وها قد ذاعت حكمتك بين جميع الإغريق ، ولو قلبت بين عشيرتك لما عرفك ولما أحس بوجودك أحد ، بل لم يجر ذكرك على لسان ! !

ومن هذه القالة نفسها فى ذم النساء :

« إنك لا تمدحينى هذا المدح إلا لأن نفسك مقروحة من غريمك ، ولكن هذا دأب كل جميلة يا بنات حواء ، إذا طابت أهواؤكن فى أكناف أزواجكن فقد تمت نعماؤكن ، فإن لفح مهاد الزوجية لافح من سوء حظكن فقد تبدلت الحالى غير الحال وانقلب كل ما كان خيراً فأصبح شراً مستطيراً ... كم كان خيراً للانسان أن يستطيع النسل بطريقة أخرى غير طريقة النساء ! ! ثم ما كان أجمل ألا يخلق جنسكن ؟ ! إذن ما حاق بنا شر ولا عرف وجه الأرض موبقة من الموبقات ! ! »

ومن أغانى الخورس فى تمجيد أثينا ص ٩٧ نقتطف هذه السطور :

« يا أبطال شعب إركتيوس ! يا أنسال الآلهة .. يامن يطعمون ثمار الحكمة[1] النافعة ، وينشقون ألطف أنفاس النسيم ، وينعمون أبداً بالسماء الصافية ، ويضربون فى تلك الدروب المأهولة حيث كانت عرائس بيريا ترطب أرواح الآباء بطهر السرة وتلقن آلهة الألحان كيف تتغنى قصتها الأولى »

والسطران الأخيران من الفقرة الثانية من ذلك الخورس نفسه:

يخطر الحب فى مهرجان الحكمة فى ناديك ، وتُدل كل فضيلة وتختال حين تؤثرها آلهة الجمال برعايتها التى تنميها وتشيع فيها الجمال ! »

أطفال هرقل

عند ما مات البطل العظيم هرقل (هركيولز) استبد ملك آرجوس بزوجه وأطفاله ، وظل يسقيهم من الهوان ألواناً حتى اضطروا إلى الفرار مع راعيهم يولوس ... وقد رفضت جميع الممالك اليونانية إيواءهم خوفاً من بطش ملك آرجوس حتى ينتهى بهم المطاف إلى المدينة الحرة أثينا فيعطف عليهم ملكها الشجاع الذى يرغم قائد الأرجيف الذى جاء يقبض أثرهم ويعود بهم إلى آرجوس... ويثور القائد ويهدد بإعلان الحرب على أثينا فى الحال إن لم يُسلم ملكها (ديموفون) الفارين من الأرجيف . لكن الملك يثبت كالصخر وينتهر القائد ، لأنه لا يخاف الحرب من أجل المحافظة على الكبرياء الوطنية، ولأن الذى يلوذ بأثينا فإنه آمن ، لأنه يلوذ بالمدينة الحرة

(١) حيرودوتس — ٧ — ص ١٠٤
(٢) ترجمة القتطفات وتلخيص الدرامات من طبعة دانت وميديا من ترجمة وودهل ج ٢ ص ٨٦

(١) فى الأصل اليونانى Sophia التى اشتق منها اسم القوطائيين وتعنى الحكمة أو الفضيلة

القائد كريبوس : إذن يهرع الأشرار من كل مكان ليلوذوا بأثينا ؟

ديموفون : هذا الهيكل[1] حل لكل لاجىء !

القائد : سيرى أولو الأمر فى مدينا غير ما ترى ؟

الملك : أولست ملك هذه البلاد إذن ؟

القائد : فلا تجر على رؤسهم الويل بسوء عملك !

الملك : أفأنت تعد ما أرفض من استباحة هيا كل الآلهة سوء عمل ؟

القائد : لست أحب لك أن تجازف بحرب ضد الأرجيف !

الملك : أنا قرينك فى محبتى للسلم وتعلق به ، لكنى مع ذلك لن أخيب رجاء هؤلاء الساكين !

القائد : يد أنى مكلف بالقبض على من هم منا !

الملك : إذن فلا تحسب أنك مستطيع العودة إلى آرجوس بسهولة ...

القائد : سأجرب لأعلم ما وراء التجربة !

الملك : إذا خيل لك أنك قادر عليهم فستندم على مجرد مسهم !

ويستمر الحوار على تلك الوتيرة ثم يمضى القائد ثائراً مرعداً وتعلن الحرب ! والدرامة تكبر من أساليب الديمقراطية فى الحكم وتسفه الوسائل الاستبدادية فيه

وفى درامة (نسوة متضرعات) التى تدور حوادثها على توسل نساء الأرجيف لدى قادة أثيكا فى رد جثث أبنائهن قتلى الحرب بين أثينا وآرجوس ، منظر وطنى رائع بين قائد طيبة وملك أثينا ... فإن القائد يدخل متفحما سائلاً : « من الحاكم بأمره[2] فى هذه البلاد ؟ » . فيصحح له الملك خطأه ويجيبه : « ليس هنا حاكم بأمره يا صاح ... إن هذه لمدينة حرة ... وإذا قلت مدينة حرة فإنى أعنى أن كلاً من أفراد الشعب يأخذ فى دوره بنصيب فى الملك ، وليس للأغنياء عندنا من دون الفقراء امتيازات مّا ! »

وليوريبيدز درامات وطنية مفقودة نظمها قبيل حرب البلوبونيز الأولى أو عقبها يطول بنا البحث إذا تناولناها هنا فنكتفى بالإشارة إليها ، ويحسبنا أن نذكر منها درامات إيجيوس ، وثيذيوس ، وإرختيوس

دريني خشبة

(١) للتطرق هيكل زيوس فى الفورم عند سراثون (دانت ـ وودهل ـ ج ٢ ص ٣٧١)

(٢) الكلمة تيراتوس ومعناها الملك المستبد

الحـــاجة

للشاعرة أبو هريرة والكنس
للآنسة الفاضـــلة « الزهرة »

أيتها الحاجة التى طالما حسبتها عدوتى الكاشحة ، أنت أيتها السيدة الجافية ذات المحيا الكتيم المكفهر لقد أصبحتُ أعرفُ جيداً الآن وقد عزّ التقاؤه بيننا ، أنك كنت لى صديقة عزيزة ، ربيئة مما رميتك به من اللائمة مترعة مما عرضته لك بالنكير . . .

حقًّا إن أفضل ما قمت به من الأعمال وأبرع جولات خيالى المجنّح ، قد كانت من فيض وَحْيك

وقد أهابَ بى صوتُك القوى الحازم ، إلى ركوب ظهور الموائق ، وتخطى رقاب الموانع ، كما أقدمَ بى تحضيضك ، على حمل السيّ وشحذ عزيمتى على الجدّ والكفاح

وأغرانى بأن أضرب للحياة جأشاً ، وأثبت للوجود عقداً

ولولا ما كنتِ تنفحيننى من روحك لخمدتْ تلك الجذوة المحتدمة فى طين نفسى

ولولا سيادتك القاصرة على حياتى وما ألجأتنى إليه مراراً من حمل الأعباء ، والنهوض بالبلاء ، والتسامى عن آفاق اليأس والقنوط لما اهتديتُ إلى منجم الكنوز الدفين فى خبايات نفسى

ولئن كانت قد تفرقتْ سبلنا ، وتشعبت طرقنا ، واختلفت متجهاتنا ، وبعدت نوانا ، وانشقت عصانا اليوم

ولئن لم يتح لى أن ألقاك ثانية ، إلى أن يقطع بى السبب ويضحو ظلى وتطوى صحيفتى ، فإنى أريد أن أسفر لك من هذه الأزاهير الشذية إكليلاً أزين به مفرقك ، لكى تعرف القلوبُ الأخرى إليك وتجد فيك أبرّ صديقة

الزهرة